تاريخ الارسال:2018/12/13 تاريخ النشر : جوان 2019

التحليل السياقي للخطاب القصصي القرآني

The contextual analysis of Qur'anic narrative discourse

د.براهيمي الحاج

جامعة الجلفة

brahimi.elhadj@gmail.com

الملخص باللغة العربية

يحاول هذا المقال الإسهام في سد هوة سحيقة بين النظريات المدروسة وتطبيقاتها على الخطابات، خاصة ما تعلق بمقولات النظرية التداولية المعاصرة، ولئن عرفت بعضها تقييدا بإجراءات واضحة في التحليل، على غرار الحجاج التداولي، ونظرية الأفعال الكلامية التي تعتبر أس التداولية وقطب الرحى فيها، فإن ذلك لا يزال بعيد المنال في مقولات أخرى على غرار السياق التداولي، وقد حاول المقال إحكام القبضة على هذا المفهوم المتفلت على الإحكام، من خلال إحكام عناصره، واتخاذها منطلقا في التحليل، على مستويات متعددة انسجاما مع خصائص الخطاب القصصي القرآني، ومن هذه العناصر المتكلم والمخاطب والرسالة ونوعها، بالإضافة إلى الزمان والمكان، وهي في الحقيقة ما تطرحه التداولية من أسئلة من قبيل: من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ وماذا يقول؟ وماذا يريد أن يقول؟ وغيرها من الأسئلة، وقد أفضى البحث إلى نتائج طيبة، أهمها فائدة استثمار هذه العناصر في التحليل، والتحليل على مستويات لا على مستوى واحد، وتبرعم السياق وفقا لتوالد ظروف إنتاج النص وقراءته.

الكلمات المفتاحية: السياق، التداولية، التحليل السياقي، الخطاب القصصي القرآني.

Summary

This article tries to contribute to bridging the gap between the theories studied and their applications in the discourse, especially with regard to the concepts of modern pragmatics theory, and although some of them are restricted by clear procedures in analysis, such as pragmatic argumentation, and the theory of speech acts, Is still elusive in other concepts similar to the pragmatics context, and the article has tried to rounding this concept witch avoiding the rules, by determinate his elements, and take them the starting point in the analysis, at multiple levels in line with the characteristics of the Qur'anic narrative discourse. These elements the speaker and the addressee and the message and type, in addition to the time and place, which is really what posed pragmatic questions such as: Who Speaks? And what to say? And what would he like to say? And other questions. The research led to good results, the most important of which is the usefulness of investing these elements in analysis, and the analysis at several levels not on one level, and the duplication of the context according to the conditions of production and reading of the text.

Keywords: Context, pragmatics, contextual analysis, Qur'anic narrative discourse .

تمهيد

يعتبر السياق بعدا تداوليا هاما في دراسة الخطاب عموما وتحليله، ذلك أن التداولية تحتفي احتفاء استثنائيا به، بل إن هناك من يقصر تعريف التداولية بالمقامية[1]، فيجعل السياق معيارا وحيدا في تعريفها، ولا غرو في ذلك، إذ إن السياق هو المقولة التي تحيط بقضية أساسية عالجتها التداولية، وغفلت عنها النظريات اللسانية قبلها، أو أهملتها عمدا، وهي ملابسات الخطاب، والتي تعتبر فاصلا مهما في وصف الظواهر اللغوية وتفسيرها، ومعيارا أساسيا في الوصول إلى المعنى ، وبالتالي الوصول إلى قصد المتكلم. وقبل الخوض في بحث هذه المقولة التداولية المهمة في كتب التراث من جهة، وفي كتب المعاصرين من جهة أخرى، لا بأس أن نعرج على تعريف لغوي واصطلاحي لها.

1- تعريف السياق

1-1 المفهوم اللغوي:

لا يمكن أن نتكلم عن المعنى الاصطلاحي لأي لفظ دون المرور على المعنى اللغوي الذي يعتبر قاعدة الارتكاز والركن الأصيل في تحديد وتوضيح المعنى الاصطلاحي، فكان إذا لابد من بيان المعنى اللغوي وعطف المعنى الاصطلاحي عليه.

جاء في لسان العرب في باب (سوق) ".. وقد انْساقَت وتَساوَقَت الإبلُ تَساوُقاً إذا تتابعت وكذلك تقاوَدَت فهي مُتَقاوِدة ومُتَساوِقة وفي حديث أُم معبد فجاء زوجها يَسُوق أعْنُزاً ما تَساوَقُ أي ما تتابَعُ والمُساوَقة المُتابعة كأنّ بعضَها يسوق بعضاً ... "[2]

وذهب ابن فارس إلى أن السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقا، والسَّيِّقة: ما استيق من الدواب.

ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها" [3]

وقال الزمخشري في أساس البلاغة: " وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده" [4]

"وقريب من هذا ما ورد في المعجم الوسيط : ساق الحديث: سرده وسلسله، وساوقه: تابعه وسايره وجاراه، وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه" [5]

ومن مجموع النصوص اللغوية المتقدمة نستطيع أن نقول: أن السياق في الحس اللغوي يدل على انتظام متوال في الحركة والكلام لبلوغ مقصد معين.

1-2 المفهوم الاصطلاحي:

يستعمل لفظ السياق في علم اللغة الحديث مقابلا للمصطلح الأنجليزي context الذي يطلق ويراد به المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية، سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار العناصر اللغوية أو غير اللغوية" [6]

ويرى هاليداي M.Halliday أن السياق "هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"[7]

وتقول بروس أنغام:" السياق يعني واحدا من اثنين: أولا السياق اللغوي، وهو ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى، وثانيا السياق غير اللغوي أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام"[8]

وفي المعاجم الحديثة يعرف السياق بأنه: "بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه" [9]

ويعرفه آخرون بأنه "علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه"[10] ونلاحظ في هذا التعريف الأخير أن مختص فقط بالسياق اللغوي ويهمل السياق الخارجي أو التداولي.

بيد أن هناك ما يدعى بالتعريف النموذجي كما جاء به كلارك هاربرت حين يسأل:" ما السياق؟ إنه حسب المعجم تلك الأجزاء من الخطاب التي تحف بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها، وسوف ندعو هذا بالتعريف النموذجي"[11]

ورغم تسميته لهذا التعريف بالنموذجي، إلا أن توسع الدراسات التداولية في تعريف السياق تجاوز تعريف كلارك هاربرت، خاصة وأن التداولية تعد السياق أساسا من أسسها المكينة، ليصبح عبارة عن " مجموعة الظروف التي تحف حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام ... وتسمى هذه الظروف في بعض الأحيان بالسياق context "[12]

2- عناصر السياق

تعددت وجهات نظر العلماء إلى عناصر السياق، فعدد كل منهم عناصر تختلف أو تتفق مع العناصر التي ذكرها آخرون، وسنحاول بناء على ذلك المقارنة بين نموذجين، يمثل الأول جمهور المفسرين والتراث العربي في هذا الشأن، ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية باعتباره مفسرا، ويمثل الثاني النظرية التداولية الحديثة وهو النموذج الذي قدمه براون ويول في كتابيهما "تحليل الخطاب".

2-1 عناصر السياق في التراث (ابن تيمية نموذجا):

من اللازم عند ابن تيمية لمن يريد أن يفسر القرآن أن ينظر إلى :

1- المتكلم بالقرآن.

2- المنزل عليه.

3- المخاطب به.

4- سياق الكلام.[13]

5- معرفة المكي والمدني

6- معرفة أسباب النزول.[14]

2-1-1- المتكلم بالقرآن:

أما المتكلم بالقرآن فهو المخاطب عند غيره، وبما أن الخطاب هنا هو الخطاب القرآني فإن المتكلم بالقرآن هو الله سبحانه وتعالى، و"كان مقصود السلف رضوان الله عليهم أن الله هو المتكلم بالقرآن وسائر كلامه. وأنه منه نزل لم ينزل من غيره" [15]

ومن هنا وجب التعامل مع النص القرآني بداية من هذا العنصر، في اعتقاد صفات الكمال والجلال في صاحب الخطاب، وهذا ما يجعلنا نضع النص القرآني في مكانة غير التي نضع فيها الخطابات الأدبية الأخرى، وجعله حكما لا محكوما عليه.

ولنعط مثالا واحدا يكفي لمعرفة أثر هذا الكلام في فهم الخطاب القرآني:

تكلم الأصوليون عن خمس مبادئ لحصول التفاهم بين المخاطب ومتلقي الخطاب، (نجاح التواصل) من بينها مبدأ هام يتعلق بالعنصر الأول الذي نحن بصدد الحديث عنه (المتكلم بالقرآن) وأسموا هذا المبدأ: مبدأ صدق المتكلم، ولنطرح السؤال التالي الذي يوضح أثر ذلك في فهم الخطاب القرآني:

ما أهمية افتراض أن المتكلم صادق؟

يشير الرازي إلى أنه إذا علم أو ظن أن المتكلم لا يكذب، علم أن المقصود حمله على المجاز"[16]

و"طبعا فيما يتعلق بنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة فإن أي نص يبدو متعارضا مع صدق المتكلم، أو الصحة العقلية، أو الصحة الشرعية، فينبغي أن يحمل على المجاز وذلك لاعتقاد صدق قائل النص"[17]

ومن هنا يمكن أن نسطر قاعدة مفادها:

كلما زادت معرفة السامع بالمخاطب زاد فهمه للخطاب.

2-1-2- المنزل عليه:

وأما المنزل عليه فهو المخاطَب عند غيره، مع مراعاة أن ابن تيمية هنا يخص الخطاب القرآني باعتباره وحيا يتطلب منزلا عليه، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما عبرت عنه الآية الأولى من سورة الكهف " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا" الكهف 01 ، والمقصود بهذا العنصر ليس شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط، وإنما كل من تبعه ومن هو مدعو لاتباعه، بقرينة الآيات التي تلي الآية الأولى من سورة الكهف، يقول تعالى: " قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4)" الكهف 02-03-04 ، فالخطاب القرآني منزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وموجه إلى الذين آمنوا به والذين كفروا به أيضا، "فإن المنزل عليه القرآن معتبر في التفسير لا باعتباره مخاطبا به فحسب، وإنما باعتباره ناقلا ومبلغا له"[18]

2-1-3- المخاطب به: أما المخاطب به فهو الرسالة عند غيره، وهي هنا القرآن الكريم، ومعرفة المتلقي لخصائص الخطاب القرآني، ومعرفة العلوم المتعلقة به، كالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمكي والمدني، وغيرها من فروع علوم القرآن، تعينه على فهم الرسالة المتضمنة في الخطاب.[19]

2-1-4- سياق الكلام

وأما هذا العنصر لم أجد ما يشرح مقصد ابن تيمية من سياق الكلام، وبعد الاطلاع على مجموع فتاوى ابن تيمية لاسيما في أجزاء التفسير، يمكن أن نخلص أن ابن تيمية يريد به السياق الداخلي للنص، ولقد استعمل هذا المصطلح في تفسير كثير من الآيات، منها على سبيل المثال لا الحصر:

قال ابن تيمية:" فإن حرف الاستفهام إذا دخل على حرف النفي كان تقريرا، كقوله: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)، (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ) ، (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) ، ومثله كثير. بخلاف استفهام فرعون، فإنه استفهام إنكار، لا تقرير، إذ ليس إلا أداة استفهام فقط، ودل سياق الكلام على أنه إنكار."[20]

وقال أيضا:" فقوله : { لو تعلمون علم اليقين } لم يذكر المعلوم حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم فإن أريد معلوم خاص فلا دليل في الشرط عليه حتى يصح الارتباط . وإن أريد المعلوم العام وهو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها وهذا فيه نظر . فقد يسأل ويقال قوله : { سوف تعلمون } { ثم كلا سوف تعلمون } لم يذكر فيه المعلوم بل

أطلق ومعلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئا لم يكن علمه وجوابه : أن سياق الكلام يقتضي الوعيد والتهديد حيث افتتحه بقوله : { ألهاكم التكاثر }"[21]

2-1-5- المكي والمدني (الزمان والمكان):

وهذان العنصران يعبران عن عنصري الزمان والمكان عند غيره، خاصة أن هذين الأخيرين هما من أهم المعايير التي يصنف بها القرآن المكي والمدني. يقول الزركشي: "اعلم أن للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات:

أحدها: أن المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة.

والثاني: -وهو المشهور- أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة.

والثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني، ما وقع خطابا لأهل المدينة"[22] "ونحن لا نريد أن نتدخل في ترجيح أحد هذه المفاهيم على الأخرى، ذلك أن الذي يعنينا من هذا الفهم للمكي والمدني اشتمالهما على ثلاثة من عناصر الموقف هي المكان على المفهوم الأول، والزمان على المفهوم الثاني، والخطاب (المخاطبون) على المفهوم الثالث."[23]

2-1-6- سبب النزول:

وسبب النزول مفهوم شامل للموقف الذي نزلت فيه الآية أو الآيات بكامل عناصره، وهو"يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب" [24]

إذ " لا يجوز لمن يدرسه أن يغفل عن أسباب النزول التي ترتبط بها بعض الآيات إذا صحت رواياتها، ولهذا أثر عن جماعة من السلف كلمات تجعل من معرفة أسباب النزول واجبا على المفسر، فقد نقل السيوطي عنهم تحريم تفسير كتاب الله لمن جهل أسباب النزول"

ومثال على ذلك في قوله تعالى:"لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" المائدة 93، فقد روى البراء بن عازب قال: مات أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يشربون الخمر، فلما حرمت قال أناس: كيف لأصحابنا؟ ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت هذه الآية"[25]

وقد حكي عن عثمان بن مظعون، وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان: الخمر مباحة، ويحتجان بهذه الآية، وخفي عليهما سبب نزولها فإنه يمنع من ذلك"[26]

فهل يمكن أن نوسع هذا المفهوم في الخطابات العادية، أي هل يمكن إضافة هذا العنصر إلى عناصر السياق في الخطابات العادية؟ ونسميه إذ ذاك سبب القول.

2-2-I عناصر السياق في النظرية الحديثة (براون ويول نموذجا):

قبل الحديث عن نظرة براون ويول لعناصر السياق لا بأس أن نعرج على نظرة هايمس (1964) الذي سبقهما في ذلك، حيث حدد هذه العناصر كالتالي [27]:

- المرسل Addressor
- المتلقي Addressee
- الحضور Audience وهم أشخاص مستمعون حاضرون يساهم حضورهم في تخصيص الفعل الكلامي.
- الموضوع Topic وهو محور الحديث أو الفعل الكلامي.

- المقام Setting ويدخل فيه زمان ومكان الحدث التوالصي، وكذا العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إل الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه.
- القناة Channel كيف حدث التواصل بين المشاركين، وقد تكون القناة كلاما أو كتابة أو إشارة.
- السنن Code اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستعمل
- شكل الرسالة Message forme (دردشة، حوار، جدال، موعظة، خرافة، ...)
- المفتاح Key وهو تقديم للرسالة ويشمل حكما على الرسالة
- الغرض purpose أي أن ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة الفعل التواصلي

غير أنه ليس من الضروري الاحتفاظ بكل هذه العناصر، ومن ثم حسب براون ويول يمكن الاكتفاء بما يلي:

[المتكلم، المخاطب، الرسالة، الزمان، المكان، نوع الرسالة [28]

ويمكن المقارنة بين النموذجين السابقين في الخطاطة التالية:

شكل رقم 01: عناصر السياق بين التراث والنظرية الغربية

ونلاحظ التقارب الكبير بين النموذجين المقدمين، مع ملاحظة أن ابن تيمية جعل السياق الداخلي عنصرا من عناصر السياق العام، وهذه نظرة تداولية عميقة، إذ جعل السياق التداولي هو السياق الأعم، والسياق الداخلي جزء منه.

I-2-3 عناصر السياق والخطاب القصصي القرآني:

لا بد أن نميز الخطاب القصصي القرآني عن غيره من الخطابات، وخاصة في دراسة عناصر السياق، لأن الخطاب القصصي في القرآن يشمل مستويين على الأقل من الأسيقة:

المستوى الأول: هو مستوى أحداث القصة التي تتطلب متكلما ومخاطبا ورسالة وزمانا ومكانا معينا، بل وحتى نوعا معينا من الرسائل

أما المستوى الثاني: وهو مستوى الخطاب العام، وهو مستوى أعلى من الأول، إذ يتطلب متكلما ثابتا هو الله جل ثناؤه، ومخاطبا يتغير حسب الرسالة الموجهة، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو كل من يقرأ القرآن، وزمانا ومكانا معينين وهما زمان ومكان نزول الوحي، ورسالة تكون حافة لأحداث القصة أحيانا ومدمجة في ثناياها أحيانا أخرى.

وبهذين المستويين وربما أكثر يمكن أن نفهم عناصر السياق في الخطاب القصصي القرآني، إذ إن النص القرآني مفتوح على مستويات أخرى، توظف حسب الاستعمال.

ولنأخذ مثالا على تطبيق عناصر السياق في قصة أصحاب الكهف

التحليل السياقي للخطاب القصصي القرآني:

المتكلم والمخاطب: تبادل الأدوار بين الفتية أصحاب الكهف.

ويبدو ذلك جليا في عدة آيات:

" هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا" الكهف 15.

"...قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ..." الكهف19

الرسالة: إعلان العبودية لله تعالى

الزمان: في زمن الملك دقينوس

في سياق ذكر الزمن، نشير إلى ظاهرة لاحظناها في طريقة سرد هذه القصة في سورة الكهف، يمكن أن نسميها الزمن المؤجل، ذلك أن الله عز وجل أجل ذكر الزمن الكامل للقصة إلى آخرها، فقال جل ثناؤه في البداية:" فَضَرَبْنَا عَلَى آَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا" الكهف11 ، ثم في ثنايا القصة قال:"...قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ..." الكهف19، وفي الأخير ذكر الزمن بعد الانتهاء من سرد القصة والتعقيب عليها، في قوله تعالى:" وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا" الكهف25

وهذا التأخير كما أن فيه تشويق لمتلقي الخطاب، فإن فيه وجوه من الإعجاز إذ "يأتي ذكر الزمن أحيانا في السرد القصصي، وكأنه مقصود لذاته، ليبين وجه الإعجاز الإلهي في استعماله" [29]

وليوضح بأن الله "ليس خاضعا لما يخلق من أزمان مثلما نحن خاضعون، وإنما هو فوقها جميعا، ومتعال عليها" [30]

ووجه آخر في الإعجاز في هذه الآيات، ذلك "أن يقدر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين . فعُبّر عن هذا العدد بأنه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع ، ليعلم أن التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم . قال السهيلي في الروض الأنف } : النصارى يعرفون حديث أهل الكهف ويؤرخون به . وأقول : واليهود الذين لَقّنوا قريشاً السؤالَ عنهم يؤرخّون الأشهر بحساب القمر ويؤرخون السنين بحساب الدورة الشمسية ، فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسيةً ، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسيةٍ بثلاث سنين زائدة قمرية . كذا نقله ابن عطية عن النقاش المفسر . وبهذا تظهر نكتة التعبير عن التسع السنين بالازدياد . وهذا من علم القرآن وإعجازه العلمي الذي لم يكن لعموم العرب علم به" [31]

المكان: مدينة أصحاب الكهف

نوع الرسالة: إعلان لموقف ووعد بينهم على الثبات على التوحيد.

ومن هذا التحليل ندرك أن هذه العناصر بحاجة إلى إضافة عنصر هام من عناصر السياق ليتم فهم القصد من الرسالة، هذا العنصر ركز عليه المفسرون والعلماء لفهم الخطاب القرآني، وهو سبب النزول، وما دمنا في المستوى الأول للتحليل نسميه هنا دافع الرسالة، أو سبب القصة.

سبب القصة:

"روى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين - حسبما ذكر النقاش أو من مؤمني الأمم قبلهم - فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله، فرفع أمرهم إلى الملك وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل، فقالوا له فيما روى: " ربنا رب السموات والأرض - إلى قوله - وإذا اعتزلتموهم ".

وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شبان أغمار لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أستأني، فاذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرب لهم في ذلك أجلا، ثم إنه خلال الأجل تشاور الفتية في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إني أعرف كهفا في جبل كذا، وكان أبي يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختف فيه حتى يفتح الله لنا" [32]

المستوى الثاني:

بالنسبة للمستوى الثاني يمكن أن نورد عناصر السياق كالتالي:

المتكلم: الله سبحانه وتعالى.

المخاطب: الرسول ومن تبعه، وكل من هو مدعو لاتباعه، يقول أبو السعود في تفسيره: " والخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلُح للخطاب" [33]

الرسالة: التعامل مع فتنة الدين.

الزمان: المرحلة المكية، وهذا طبعا يساعدنا على اكتشاف الموضوع العام المراد طرحه، إذ يكتسب الخطاب طابعا خاصا حسب زمنه، وهذا ما تكلم عنه العلماء في تصنيف المكي والمدني.

المكان: مكة المكرمة

نوع الرسالة: قصص

سبب النزول:

ذكر السيوطي سبب نزول الآية في كتابة أسباب النزول فقال: " أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره، وبعض قوله، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟

فأقبلا حتى قدما على قريش، فقالا : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه، فقال: أخبركم غدا بما سألتم عنه، و لم يستثن.

فانصرفوا ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك إليه وحيا، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ.."الإسراء85 "[34]

من هذه العناصر تتضح الصورة كاملة، ونفهم القصد أو هدف الرسالة ومحتواها، بل إننا يمكن أن نضيف عنصرا هاما إلى عناصر السياق بالنسبة للخطاب القصصي القرآني، نسميه: عبر الرسالة، وهي التوصيات الحافة بالسرد القصصي، ومنها في هذه القصة:

- "...لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا..." الكهف21
- " وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا" الكهف 23-24
- "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" الكهف 28

وهكذا تكتسب كل عبرة من العبر رصيدا سياقيا يعطيها شرعيتها وقوتها، فالأولى "ليعلموا .." من خلال عنصر الزمن الأول والإعجاز فيه، والثانية "ولا تقولن .." من خلال عنصر سبب النزول، والثالثة " واصبر نفسك.." من خلال تظافر عناصر السياق كلها، وبالتالي نربط بين الخطابات الحافة للقصة القرآنية وأحداث القصة نفسها، ومن ثم ندرك انسجام الخطاب القصصي القرآني.

الخلاصة:

يمكننا من خلال الدراسة السابقة الخلوص إلى النتائج التالية:

- يعتبر السياق بعدا تداوليا هاما في دراسة الخطاب عموما وتحليله، وفي دراسة الخطاب القصصي القرآني خصوصا.
- للسياق عناصر كلما تعرف عليها متلقي الخطاب كلما فقه الرسالة الموجهة إليه، واشتركت النظرية الحديثة وما قدمه المفسرون على رأسهم ابن تيمية في عناصر هي: المتكلم والمخاطب والرسالة والزمان والمكان واختلفتا في عناصر أخرى لكل منها سبب وجيه في إيرادها في مكانها. غير أن نظرة ابن تيمية انفردت بجعل السياق الداخلي عنصرا من عناصر سياق الموقف.
- يتفرد الخطاب القصصي القرآني بالنسبة للسياق بما يلي:

- وجود ثلاثة مستويات على الأقل للتحليل السياقي، خاصة فيما يتعلق بالسياق المقامي، ويعتبر هذا الأخير متجددا في المستوى الثالث.
- الخطاب القصصي القرآني ينتج سياقه بنفسه، ولهذا نعتبره خطابا مفتوحا لإنتاج السياقات المتجددة.
- للسياق أثر واضح في توجيه الدلالة، وترجيح آراء المفسرين.

المصادر والمراجع

[1] ينظر: - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص 12.
- Stephen C.Levinson, Pragmatics, Cambridge university press, , Ninteenth printing, 2008, P9

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة "سوق"

[3] ابن فارس أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة، دار الفكر ، بيروت لبنان، ط2، 1998 م ، ص498

[4] الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط1، 1998، 484/1

[5] خلود العموش، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2008، ص25.

[6] نفس المرجع، ص51

[7] نفس المرجع ونفس الصفحة.

[8] المرجع السابق ص51.

[9] العموش ، الخطاب القرآني ، ص25.

[10] نفسه ص25.

[11] الشهري، عبد الهادي بن ظافر ، استراتيجيات الخطاب ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط1، 2004، ص40.

[12] نفسه ص41.

[13] ابن تيمية، تقي الدين أحمد، مجموع الفتاوى، مكتبة المعارف، الرباط – المغرب، 344/13 و345

[14] الطلحي، ردة الله بن ضيف الله، دلالة السياق،مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، السعودية، ط1، 1423 هـ، ص 580.

[15] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 85/17

[16] محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي ، دار المدار الإسلامي، ط1، 2006 ، ص102.

[17] نفسه ، ص 91.

[18] الطلحي، دلالة السياق، ص112.

[19] أخطأ د.الطلحي في نقل هذا العنصر من كتاب الفتاوى، فنقله (المخاطب عليه) وراح يعطي التأويلات والاحتمالات الممكنة التي تدفع التناقض مع العنصر الذي قبله أي المخاطب به، ، فقال في هامش كتابه دلالة السياق ص111 (فإن المراد قد يكون (المخاطب به) أي الرسول ﷺ وعموم المدعوين لاتباعه، وقد يكون المراد بهذه العبارة (الموضوع) الذي تساق له الآية أو الآيات، وهو الذي نفهمه من قوله (عليه) والأول يكون تكرارا للإشارة للرسول ﷺ، إذ عبر عنه مرة بالمنزل عليه، وأخرى بالمخاطب عليه، أو قد يكون المراد بالمنزل عليه الرسول ﷺ من حيث أنه متحمل لعبء تلقيه وتبليغه، وبالمخاطب به أو عليه كونه ﷺ من جملة المخاطبين بالقرآن، أول المتمثلين للتعبد به.. ولربما كان الأرجح حمل المخاطب به على الوجه الثاني أي على اعتبار حال الرسول مبلغا ومخاطبا دفعا للتناقض" ولا شك أن الطلحي كان في عوض عن كل هذا العناء، إذ أن ابن تيمية ذكر (المخاطب به) بشكل واضح و لم يذكر المخاطب عليه.

[20] ابن تيمية، الفتاوى، 340/16.

[21] المرجع السابق 519/16-520

[22] الزركشي بَدْر الدِّينِ ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957، 187/1.

[23] الطلحي، دلالة السياق، ص582.

[24] ابن تيمية، الفتاوى، 339/13.

[25] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1411هـ ص212

[26] الزركشي، البرهان، 28/1.

[27] Brown G and George Yule (1983) Discourse analysis Cambrige university presse – London p38
وانظر أيضا : مقبول إدريس، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2007، ص323-324

[28] خطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006، ط2، ص297.

[29] طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، د م ج، الجزائر، 1991، ص39

[30] مصطفى محمود، القرآن محاولة لفهم عصري، دار المعارف، القاهرة، ط04، ص170

[31] ابن عاشور،محمد الطاهر ، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ص300-301.

[32] القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان 1405 هـ 1985م، 359/10

[33] أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المطبعة المصرية، ط1، 1928، 244/3

[34] السيوطي، جلال الدين، أسباب النزول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004. ص162.